تكرارها منذ سقوط غرناطة ولم يليها غير إخوانهم المجاهدين في افريقية ، فقد استطاعت جموع جريئة مخاطرة منهم أن تجوز الشواطىء الاسبانية ومنهم فرقة من الترك المرتزقة وان تهرع الى نصرة المنكوبين

وهكذا عاد النضال الى اشده ، وخشى الاسبان من احتشاد الموريسكيين في البيازين ضاحية غرناطة، فصدر قرار بتشريدهم في بعض الانحاء الشمالية ، وكانت مأساة جديدة مزقت فيها هذه الاسر التعسة وفرق فيها بين الاباء والابناء ، والازواج والزوجات في مناظر مؤثرة تذيب القلب ، وسار المركيز لوس فيليس في نفس الوقت إلى مقاتلة الموريسكيين في سهول المنصورة على مقربة من أراضي مرسية ، ونشبت بينه وبينهم عدة وقائع غير حاسمة ، ولم يستطع متابعة القتال لنقص في الأهبة والمؤن وكان بينه وبين زميله منديخار خصومة ومنافسة كانتا سبباً في اضطراب الخطط المشتركة ، واتهم منديخار بالعطف على الموريسكيين فاستدعي إلى مدريد ، وأقيل من القيادة ، واتخذت مدريد خطوتها الجديدة الحاسمة في هذا الصراع الذي لا رحمة فيه ولا هوادة

(للبحث بقية)
(والنقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

في الأدب المقارن

المعنى والأسلوب

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

المعنى الصادق الرفيع والأسلوب المحكم الجميل هما قوام كل أدب خليق بهذا الاسم ، لايغني أحدهما إذا غاب الثاني ؛ فلا بد من شعور عميق ، أو تفكير ثاقب جدير بعناء الإنشاء والقراءة ، ولا بد بجانب ذلك من عبارة منسجمة جميلة تعرض المعنى على أحسن وجه وأحبه إلى النفوس ؛ وكبار الأدباء في شتى الأمم يجمعون دائما بين الفكر الواسع المتصرف في شؤون الحياة ، وبين المقدرة اللغوية التي تذلل لهم أعنة البيان ، ويتصرفون بها في الألفاظ والتراكيب ، ويكون لكثير منهم فضل ترحيب جوانب اللغة وإكساب تعبيراتها جدة ومرونة ، وإعطاء بعض ألفاظها منزلة سامية لورودها مورداً حسنا في بعض آثارهم ، وشأن الأديب الكبير في ذلك شأن غيره من رجال الفنون ، فالمصور مثلا لايبلغ الذروة في فنه حتى يجمع إلى خصب مشاعره بصراً بتأليف الألوان والأصباغ ، وكل فنان لابد له من الجمع بين رقة الشعور وبين البصر بالآلات التي يكون بها أداء ذلك الشعور

والفكر واللغة ، أو المعنى واللفظ ، شديدا التوثق والتوشج ، فلا ندحة للأديب عن التأثر بروح اللغة التي يكتب فيها وتراثها على مدى الأجيال ، ولا سبيل له إلى الإنشاء والنظم فيها حتى يختلط بروحها ، وتمتزج أفكاره بالمفردات والأساليب التي تهيئها له اللغة ؛ والأديب الصناع يختار من المفردات تلك التي تنهض بأفكاره ومشاعره في أوجز لفظ وأحكمه وأوضحه بيانا ، بما تمتاز به تلك المفردات من أجواء من المعاني رحيبة تجمعت حولها على مرور الأجيال وتوالي الاستعمال ، حتى غدت يثيرها مجرد ذكر تلك المفردات على نحو خاص ، وذلك ما يجعل آثار بعض الأدباء المفتنين والشعراء المجودين متعذرة الترجمة إلى غير لغتها ، لتعذر نقل هذه الأجواء المعنوية برمتها من لسان إلى لسان ، بل يتعذر أحيانا التفريق بين المعاني والأساليب التي هي مفرغة فيها . لتمازجها تمازج الروح والجسد

ويبلغ الأدب كماله حيث يسود القصد والاعتدال بين اللفظ والمعنى ، فاذا استبد المعنى بالأهمية كلها وتحيف اللفظ خرج الأثر المنشأ من حظيرة الأدب إلى حيز العلم ؛ وإذا تحيف اللفظ المعنى وصار غاية في ذاته هبطت قيمة الأثر الأدبي ، وأصبح أشبه بالزخرف والصناعة منه بالفن السامي . ويغلب الاحتفاء بالزخرف اللفظي في عهد طفولة الأدب ، إذ يكون الشعر مجرد أهازيج وقوافي موسيقية نافهة المعاني ، وفي عهود انحطاط الأدب حين ينصرف الأدباء عن لباب الحياة إلى القشور ؛ والزخرف اللفظي والبراعة اللغوية والأسجاع والإيقاع الموسيقي يكلف الأديب الناشيء أول عهده بالأدب ، وكلما نضجت نفسه وحصف ذهنه بتجربة الحياة واستيعاب المعارف تحول اهتمامه إلى المعاني والحقائق والتزم اللفظ في آثاره منزلته الصحيحة ، وهي كونه وسيلة للمعنى لا غاية في ذاته

وقد عرف أقطاب الأدب الانجليزي بواسع بصرهم بأسرار لغتهم ، وإليهم يرجع فضل توطئة جوانبها وتعبيد مسالكها ، ولكل منهم في هذا الباب أثر : فشكسبير قد استخدم في رواياته أكبر عدد من مفردات اللغة استخدمه أديب ، وصرف تلك المفردات على شتى الوجوه ؛ وسبنسر اغنى اللغة بما أدخل فيها من

ألفاظ جديدة لم تعرفها قبله ؛ وملتون أصبح اسمه علما على ضرب من النظم عذب الموسيقى فخم الرنين ؛ وبوب بلغ الغاية من إحكام الصناعة وجزالة الأسلوب ؛ ووردزورث كان دائم التجارب فى الأساليب يحاول أن يشق للشعر أسلوباً جديداً ؛ وتنيسون تفنن فى استخدام الالفاظ وتحوير التراكيب يؤلف بها روائع الصور الشعرية ، ولا تزال مخطوطات بعض أولئك الأدباء موضع دراسة النقاد والأدباء ، يتفقهون بها فى أسرار اللغة ويزدادون بصراً بخصائص الألفاظ والتراكيب ، ويرون كيف يحل لفظ محل لفظ فتشرق به ديباجة البيت من الشعر ويسفر به وجه المعنى جميلا بعد خفاء والتياث

على أن أولئك الأدباء برغم احتفائهم بالأسلوب ذلك الاحتفاء لم يغلبوه على المعنى ولم يجعلوه غاية فى ذاته ، ولم يصبح الأدب فى أيديهم براعة فى اللفظ وتأنقا فى النسج ، بل ظل اللفظ لديهم دائما خادماً للمعنى ، وظل غرضهم الأول من الانشاء الافصاح عن الفكر والشعور . ولم يسرف الأدباء فى الاحتفاء باللفظ إلا فى عهد انحطاط الشعر فى بعض القرن الثامن عشر ، فى حقبة لم تنجب شاعرا كبيرا ، ولم يحظ بالشهرة فى حياته والذكر بعد موته من أدباء الانجليزية إلا من أعلته لذلك نظرة فى الحياة صادقة عميقة ، ولم تكن كل بضاعته أسلوباً مزخرفا ، منمقا ، بل عرف من كبار الشعراء من لم يكن يولى أسلوبه كبير احتفاء ، ومع ذلك رفعه فكره الجوال فى آفاق الحياة ، ونفسيته الجياشة بأشتات الأحاسيس إلى قمة المجد ، فبيرون كان كما قال عن نفسه لايعاود النظر فى بيت شعر خطه ، ووردزورث نظم كثيراً من بدائع شعره فى أبسط لفظ يستعمل فى النثر والتحدث ، وهاردى لم يكن شعره إلا نثراً جيد النظم عاريا مجرداً من تلك الألفاظ الشعرية ذات الأجواء المعنوية ، ومن ثم لا يسمو به النقاد إلى طبقة الفحول كشكسبير وملتون ، بل ينزلونه الطبقة الثانية بين الشعراء ، وهذا الأسلوب العارى المجرد يزداد شيوعا فى العصر الحديث

أما فى العربية فكان الأمر على نقيض ذلك : فلم يكد يكون بين كبار أدبائها بعد دخول الأدب طوره الفنى من أهمل الأسلوب واحتفى بالمعنى وحده ، وإن كان أكثرهم ليقدم الأسلوب على المعنى ويحتفى للفظ ورنينه أى احتفاء وإن تضاءل المعنى وتفه ، فاذا كان النثر العربى يبلغ ذروته من الكمال على أيدى ابن المقفع والجاحظ ، والشعر العربى يجرى إلى غايته فى آثار المتنبي وابن الرومى والمعرى ، حيث يجتمع صدق النظرة وجمال الأسلوب ، فان غيرهم من مشهورى أدباء العربية إنما نبه ذكرهم لبلاغتهم اللفظية ، لا لفلسفة فى الحياة معدودة ، ولا لرسالة فى الأدب عتيدة . ومن أولئك البحترى ومن نحا نحوه من الشعراء والمداحين ، والصاحب ابن عباد ومن سلك دربه من المنشئين المسجعين ؛ فالناظر فى الأبيات الآتية من نظم أشهر شعراء العربية ، يرى أن حظها من المعنى ضئيل ونصيبها من جزالة الأسلوب ورنين اللفظ وعذوبة الموسيقى كبير ، قال أبو نواس فى مدح بعض الوزراء :

عباس عباس إذا احتدم الوغى ... والفضل فضل والربيع ربيع

وقال البحترى فى النسيب :

لما مشين بذى الأراك تشابهت ... أعطاف قضبان به وقدود
ومتى يساعدنا الوصال ودهرنا ... يومان يوم نوى ويوم صدود

وقال أبو تمام فى رثاء طفلين :

مازالت الأيام تخبر جاهلا ... أن سوف تفجع مسهلا أو عاقلا
بدران شاء الله أن لا يطلعا ... إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا
إن الفجيعة بالرياض نواضرا ... لأجل منها بالرياض ذوابلا

نصيب هذه الأبيات جميعها من الفكرة البعيدة أو النظرة المستقلة أو الشعور الصميم ضئيل . وماذا فى قول أبى نواس إن العباس عباس والفضل فضل والربيع ربيع ، إلا أنه ظرف وأحسن نظم تلك الأسماء مزدوجة فى سلك البيت ؟ وأى الناس لا يعبس إذا احتدم الوغى ؟ ولو قال : عباس بسام لكان وصفه بالشجاعة التى لاتحفل بالموت المحدق . ثم ماذا من جديد فى جمع البحترى بين الغصون والقدود وشكواه النوى والصدود ، أو فى تشبيه أبى تمام للطفلين بالبدرين الآفلين مرة وبالروضين المصوحين أخرى ؟ إنما فضيلة هذا الشعر كله حسن اختيار اللفظ النقى وجمال الموسيقى ولطافة التقسيم والمقابلة ، أما المعنى فلا عمق فيه ولا ابتكار

فالاحتفاء باللفظ ولو على حساب المعنى قد تزايد فى العربية تدريجا مع دخول الأدب طوره الفنى ، طور التدوين والتجويد ، وتزايد الولع بالتسجيع والمطابقة وغيرها من المحسنات اللفظية . وكاد الولع بالسجع عند الصاحب بن عباد فيما روى يبلغ حد الجنون ، حتى قيل إنه عزل قاضياً بناحية يقال لها (قم) لأنه أراد أن يتم سجعة فقال : أيها القاضى بقم ، قد عزلناك فقم . وتكلف فى بعض أسفاره كما حدث عنه ابن العميد أن يذهب إلى قرية غامرة ذات ماء ملح يقال لها النوبهار لا لشىء إلا ليكتب إليه : كتابى هذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار ، وما زال اللفظ يستبد باحتفال الأدباء ويطغى على المعنى ، حتى ارتد الأدب فى عصور التدهور زخرفا لفظيا صرفا ، ولم يبق من المعنى إلا هذيان كهذيان المخالطين

فلا نبالغ إذا قلنا إن المعنى كان فى أزهر عصور الأدب العربى يحتل المكان الثانى بعد اللفظ ، وهذا واضح فى أقوال النقاد . قال الآمدى فى موازنته بين الطائيين : « وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأنى وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الألفاظ فى مواضعها . . . . . فإن اتفق مع هذا معنى لطيف أو حكمة غريبة أو أدب حسن فذلك زائد فى بهاء الكلام ، وإن لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه واستغنى عما سواه » . وقال الخليلى فى سياق حديث له أورده ياقوت فى ترجمة الصاحب بن عباد : « الشاعر يطلب لفظا حرا ومعنى بديعا ونظما حلوا وكلمة رشيقة ومثلا سهلا ووزنا مقبولا » ، فكل الاهتمام هنا موجه إلى لطافة النسج والتجويد لا إلى عمق الفكرة والشعور

كان الشعراء فى الجاهلية وصدر الاسلام يرسلون القول على سجيته فى نسج محكم يرمون به إلى بيان أفكارهم وشعورهم على أقصد سبيل وأقربه ، فلما كان عهد التحضر والتثقف أحاطت بالأدب عوامل أدت إلى تقديم اللفظ على المعنى ، منها فساد اللغة بمخالطة الأعاجم فاشتد الحرص على طلب اللغة الصحيحة وإتقان أساليب العرب الأقحاح وتقليد فحول المتقدمين . وزاد هذا الحرص شدة اشتغال الأعاجم أنفسهم بالأدب وجدهم فى تحصيل لغة العرب ولسان الكتاب المنزل ، وسبقهم فى العلوم والتأليف ، وتفاصحهم بمحاكاة أدب الجاهلية وصدر الاسلام ، وتظاهرهم بالقدرة على التصرف فى الألفاظ والتراكيب ، فكان همهم صحة التعبير وبلاغته قبل صدق المعنى وعمقه

ومما زاد الأدباء انصرافا إلى اللفظ وتجويده واختيار الأسلوب والافتنان فى صياغته وتحويره ، انتشار المدح والتكسب بالأدب ، فإنه لما كانت الفضائل الانسانية ، ولا سيما تلك التى كانت مشهورة مطلوبة فى المجتمع الاسلامى ، محدودة معروفة ، كان مجال القول فيها محدودا ومجال الابتكار ضيقا ، فطلب الشعراء المداحون السعة فى جانب اللفظ ، يتأنقون فى تزويقه وترصيعه ، ويعتاضون عن الابتكار فى المعانى بالأوزان الرشيقة والقوافى الرخيمة والتشبيهات اللبيقة ، والتقسيم والمقابلة والسجع والتجنيس . وبهذه المحسنات البديعية - ما راق منها وما سمج - تحفل مدائح أبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنبى وابن الرومى ، إذا جردت من زيناتها اللفظية لم يبق من نسيبها الاستهلالى ومدحها المغرق شىء ذو بال ؛ من ذلك قول أبى تمام فى مدح بعض القواد ، ولا داعى لذكر إسم ذلك القائد أو صفته ، فما كان لكل ذلك أى دخل فى نظم مثل ذلك القصيد :

وجرد من آرائه حين أضرمت ... به الحرب حداً مثل حد المناصل
وسارت به بين القنابل والقنا ... عزائم كانت كالقنا والقنابل
وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى ... بعقبان طير فى الدماء نواهل

فكل هذه المعانى الدائرة حول شجاعة القائد وأمرائه التى تفوق الجيوش ، وعزائمه التى تفل السيوف ، والعقبان التى تتبع أعلامه لتنهل من دماء أعدائه ، كل هذه المعانى مطروقة من قبل أبى تمام ، مذكورة بعده فى ميمية المتنبى المشهورة وغيره من مدائحه لسيف الدولة ، ولا غرو فقد غدت أكثر معانى الأدب فى أبواب المدح والهجاء والفخر والوصف والحكمة وغيرها ، تراثا متداولا بين الشعراء من جيل إلى جيل ، إذا تفنن الشاعر صاغ بعضه صياغة جديدة أو ولد منه بعض التوليد ، فاذا اتفق له أن صاغ معنى قديما صياغة جديدة يفوق صياغة صاحبه الأول صفق له النقاد وقالوا سرقة مغفورة ولص ظريف هو أولى بالمعنى من صاحبه لأنه أجود لفظا ، كما قيل فى بيت البحترى فى مدح المتوكل :

لو ان مشتاقا تكلف فوق ما ... فى وسعه لمشى إليك المنبر

أخذه وتصرف فيه من قول أبى تمام :

تكاد مغانيه تهش عراصها ... فتركب من شوق إلى كل راكب

كان الشعراء إذا صرفوا القول إلى المديح أتوا بالمعانى الجوفاء الهزيلة ، واحتفوا باللفظ يدارون بزخارفه ركاكة المعنى ، وكان أكابر شعراء العربية فى طور الأدب الفنى مداحين ، فامتلأ الأدب العربى بذلك الضرب السقيم المعانى الطنان الألفاظ ؛ وإنما كان الشعراء يبتكرون المعانى الجيدة يلبسونها من اللفظ أجمل لبوس حين ينظمون فى غير المديح من الوجوه التى يدفع إلى النظم فيها شعور صحيح وفكر ثاقب ، فكانت من ذلك حكم المتنبى وأوصاف ابن الرومى ونظرات المعرى ، كما ظهرت فى الأدب العربى تلك الظاهرة الفريدة ، وهى أن أشعار كثير من المقلين وممن يعدون فى الطبقة الثانية من الشعراء كالصولى والامام الشافعى ، تروع النفس بصدقها وحصافتها أكثر مما تروعها أشعار المكثرين المشهورين ، لأن أولئك المقلين كانوا لا ينظمون الشعر إلا تلبية لحافز نفسى ، وهؤلاء المكثرين كانوا ينظمون ابتغاء النوال

ومن عوامل احتفاء أدباء العربية باللفظ أيضاً ، أن الأدب العربى فى ظل الدولة الاسلامية كان أكبره أدباً يلاطيا

وأرستقراطيا ، مكفوفا عن شؤون المجتمع ، منزويا عن أكثر مواضيع القول ومجالات الفن ومسارح الأدب ، من وصف الطبيعة والتأليف التاريخي الفني ووصف آثار الأقدمين في عالم الحضارة والفنون ، وسبحات الخيال في عوالم الحقيقة والخرافة ، وتصوير آثار الرحلات والمغامرات ، فلما حرم الأدب طرق هذه المواضيع الجمة الخصبة الحافلة بمنادح التفكير والشعور والقول ، لم يبق لديه كبير مجال للابتكار في المعاني ، فتوفر على الافتنان في الألفاظ يدور بها في مجالاته المحدودة الموروثة عن المتقدمين .

وزاد مجال القول ضيقا حرمان الأدب العربي من الاطلاع على الأدب اليوناني ؛ فلو كان على اتصال مستمر بذلك الأدب ، لتهدت أمامه منادح للقول من جهة ، ولا نصرف اهتمامه من جهة أخرى إلى المعاني دون الألفاظ ، لأن المعاني دون الألفاظ هي التي تتشارك فيها آداب الأمم المختلفة ، أما أدباء العربية الذين لم يطلعوا على أدب أجنبي راق ، فكان اعتدادهم بتفوق اللغة العربية على اللغات شديداً ، وكانت ألفاظها وتعبيراتها تقوم في مخيلتهم مقام الحقائق المنجزة ، وكان التجويد في استخدام تلك الألفاظ والتعبيرات في الأبواب المطروقة من قديم غاية الأديب ، فظل بيت زهير بن أبي سلمى الذي قاله في عهد البداوة ، يعدق على شعراء العربية في أوج عهد الحضارة والثقافة :

ما أرانا نقول إلا معارا أو معاداً من قولنا مكرورا

ثم لاشك في أن حياة الترف وزخارف العيش التي انغمس فيها العرب بعد الفتوح ، وأبهة البلاط التي كان الأدباء يحومون حولها ويتزاحمون في موا كبها ، كانت من أسباب شيوع الزخرف في الأدب الذي هو مرآة للحياة المحيطة به ، فإذا كان الأدب الفارسي قد كان في ذلك العهد من الضآلة بحيث لم يؤثر كثيراً في أدب العرب ، فقد أثر الفرس في الأدب العربي بمظاهر الترف والبذخ المادية التي نقلها عنهم العباسيون وتركت آثارها في الأدب ، وهذا الترف الأدبي كالترف المادي دليل الرخاوة والضعف ، والسير إلى الانحلال .

وقد ساعدت طبيعة اللغة العربية ذلك الميل الذي غلب على أدبائها ، الميل إلى التأنق في اللفظ ، وتثقيله بالمجسمات التي ينوء المعنى تحتها ويتضاءل ، وذلك لما للغة العربية من بلاغة أصيلة وموسيقى فخمة ، وما لألفاظها وتراكيبها في النفوس من روعة وبهاء ، وما لأوزان الشعر العربي وقوافيه من رصانة وجلال ، وما للغة من ثروة طائلة وغنى بطرق الاشتقاق وامتلاء بالمترادفات ، واتساع لصنوف التشبيهات والمجازات ، بحيث يستطيع المتمكن من كل هذا أن يجمع حوله المستجيدين ويستولي على الألباب ، دون أن يبتدع في المعنى أو يتعمق في الشعور . كما تصرفك عذوبة اللحن الموسيقي عن تفاهة المعنى المتغنى به ؛ وقد استغل كتاب العربية كابن العميد والصاحب والبديع والحريري ثروة اللغة هذه أبعد استغلال ، وجاءت رسائلهم ومقاماتهم معارض مائجة بتلك الكنوز العظيمة

في الأدبين العربي والانجليزي آثار بالغة حد الفن من الصدق والعمق والجمال ، تجمع بين حرارة الشعور وجودة الأسلوب ؛ غير أن الأدب العربي لإحاطة تلك الظروف والعوامل به ، أحفل من الأدب الانجليزي بالآثار التي يغلب فيها اللفظ على المعنى ، وتظهر الصنعة على الطبع ، وتبدو فيه دلائل الاحتفاء بالأسلوب واضحة ، حتى في مخلفات أكبر أدبائه وأعظمهم حظا من النبوغ والشاعرية . ويعد بين أقطابه أفراد لم تؤثر عنهم فلسفة في الحياة خاصة أو شخصية مستقلة ، ولم يرفع ذكرهم إلا اقتدارهم على تصريف الكلام ، ويمتلىء الأدب بآثار أولئك الأدباء التي تعجب بحلاوة أسلوبها وإن لم تعجب بعمق فكرتها ، فلسنا نسرف إذا قلنا في الجملة إن الأدب العربي كان أدب أسلوب ، والأدب الانجليزي أدب معنى

فخري أبو السعود

في الطريق

كتاب جديد يصدر في سبتمبر

بقلم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

أكثر من ٦٠ قصة في ٥٠٠ صفحة

قيمة الاشتراك فيه ١٠ قروش ، الثمن بعد الطبع ١٥ قرشاً

ترسل قيمة الاشتراك بعنوان المؤلف

بشارع فاروق رقم ٢٢١ بمصر

الاشتراك يقفل في منتصف أغسطس